مدينة النور

تعانى ظلام الخطوب

للدكتور زكى مبارك

قُضِيَ الأمر وسقطت باريس بين أيدى الألمان !

فمن كان يستبعد أن تميد الجبال فليعرف اليوم أن الوجود لا يعرف المستحيل . ومن كان يرتاب فى « يوم القيامة » يوم « الفَزَع الأكبر » فليتصور الساعة التاريخية التى اعترف فيها الجيش الفرنسى بأنْ لا فائدة من الدفاع عن باريس

ولكن أى جيش ؟

هو جيش صام عن النوم والطعام سبعة أيام إلى أن لم يبق من قُواه غير أشلاء ، وكان مع ذلك يحب أن يقاتِل إلى أن يبيد وهو يذود عن باريس ، ولكنه خاف على ذخائرها الغالية فقرر أنها « مدينة مفتوحة » ومضى يقاتل قتال اليائس المستميت فى مواضع لا قِلاع فيها ولا حُصُون

إذاً حقت المخاوف وسقطت باريس ، باريس صاحبة الحق على جميع الشعوب بفضل ما علمت الناس أصول الثورة على الظلم والاضطهاد

فإن قال قائل إن باريس هى عاصمة فرنسا الاستعمارية، فليذكر أنه لم يَثُر ثائرٌ على الاستعمار فى مَشرق أو فى مغرب إلا وفى روحه جذوة من النار التى أوقدتها باريس للغضب على استعباد الشعوب

أقول هذا وقد لامنى صديقٌ على التوجع لمصير فرنسا فى مقال نشرته بجريدة الأهرام منذ أسابيع ، وكانت حجته أن فرنسا صنعتْ فى الشرق ما صنعتْ ، وأنه لا يجوز الحزن على أمة تحملها القوة على أن تبنى وتستطيل

وهل كنت أجهل عيوب الأمم الاستعمارية حتى يدلنى عليها ذلك الصديق ؟

إن الأسد هو الصورة العظيمة للبطش والفتك والافتراس، ولكن هل يشمت الحُرُّ بالأسد حين يراه فى مدارج الضيم والاستذلال ؟

ذلك حالى فى التوجع لفرنسا الجريحة ، وقد حاربتها بقلمى سنوات حتى صح لوزير الخارجية الفرنسية أن يعارض فى منحى وسام الأكاديمى سنة ١٩٣١ وهو سرٌّ لم أذعه قبل اليوم ، وما أذيعه الآن إلا ليعرف الصديق المتعتِّب أنى لا أهتم بغير المعانى. وقد مُنِحتُ ذلك الوسام بعد تلك الجفوة فى سنة ١٩٣٦ فلم أر فيه إلا تحية لرجل بصادق فرنسا صداقة علمية لا سياسية .

ومن كان فى مثل وطنيتى فهو فوق الشُّبهات والظنون ، والصدق فى الوطنية من أشرف الأرزاق

إن الضعيف هو الذى يشمتُ بالقَوىّ حين تزلّ قدماه ، فليعرف ذلك من يحس الشماتة بمدينة النور ، على عهودها الزواهر أطيب التحيات !

وهل أملك إخفاء حسراتى على ما صارت إليه باريس ؟

وهل يستطيع أديبٌ ألمانىٌّ أن يُخفى لوعته على مصير تلك المدينة وهو عدوٌّ حتى يستطيع أديبٌ مصرىٌّ أن يخفى لوعته وهو صديق ؟

حدثتنا البرقيات أن الجنود الألمان طافوا بشوارع باريس وهى خالية ، فأىُّ أديبٍ لا يتفطّر قلبه حُزْناً حين يسمعُ أن شوارع باريس عرفت الهدوء لحظة من زمان ؟

هى لفتة من لفتات الدهر الغادر الذى يرى كسوف الشمس وخسوف القمر ضرباً من ضروب المزاح

هى وثبة من وثبات القدر الذى يزلزل الوجود حين يشاء

فمن كانت عنده بقية من الصبر على مكاره الأيام فليتفضل علىّ بكلمة عزاء لأتناسى أصدقائى فى باريس ، أصدقاء العهد الجميل يوم كنت طالباً فى السوربون ، السوربون التى صارت اليوم قفراً يباباً لا يطوف بأركانه غير الشامتين من غُلْف القلوب

باسم القوة غُزِيت باريس ، وذلك جزاء وِفاق ، فليس فى باريس مكان إلا وهو ندِىٌّ للثرى بالدماء المسفوكة فى سبيل الحرية ، والحرية من أسماء القوة ، والرجل الحرُّ لا يرضى الموت بغير السيف ، وكذلك تستشهد باريس . فإن استطاع الألمان أن يخمدوا اللهب الذى يتوقد فوق قبر « الجندى المجهول » تحت « قوس النصر » فسيذكرون بعد حين أن تلك الجذوة ستنقلب إلى سعير يفتك بمجامع الأضغان ، ويرد الدنيا إلى عهدها القديم يوم كانت دار علوم وآداب وفنون ، كما كانت لعهد باريس قبل أن يحولها الغزو إلى أشباح لا تملك الجواب بغير الصمت البليغ !

إن لبست باريس أثواب الحِداد فى سنة ١٩٤٠ فقد ألبست برلين أثواب الحِداد فى سنة ١٩١٨ . والحروبُ قصاص ، وكما

يَدين الفتى يُدان . وهنيئاً لمن يحمل السيف فينتصر فى وقائع وينهزم فى وقائع ، فما الحياة الحق إلا عراكٌ ونضال وقتال

ومن ظنّ ممن يلاقى الحروب بأن لا يصاب فقد ظنّ عجزاً

وهل كفت باريس عن الدعوة إلى الحرب حتى تنكر عواقب الحرب ؟

فى باريس مئات من التماثيل لعظماء الرجال الذين كافحوا فى مختلف الميادين ، وفى كل خطوة يخطوها زوّار باريس أثرٌ ينطق بأن مدينة النور لا تعرف الحياة فى غير الصراع والنضال ، فما جَزَعُك يا باريس وأنت صيرت الحرب من شرائع الوجود ؟

إن قوة الألمان فيضٌ من قوتك يا باريس ، فأنت غرست الحقد فى صدورهم ، وأنت قهرتهم على أن يتربصوا بك الدوائر عشرين سنة ليلقَوك بأمثلة موتورة لا يشفى غليلها غير الولوغ فى دماء الرجال

فبفضلك استطال الألمان يا باريس ولولا خشيتهم مما تملكين من عظمة وجَبَرُوت لما وصلوا فى التسلح إلى الحد الذى يسمح بأن يقهروك على إلقاء القلائد

وانهزامُك يا باريس سيكون درساً لأبناء الجيل الجديد ، وبه يعرفون أن لا قيمة للاعتماد على التاريخ ، وأن لا قيمة للتمدح بالفضائل الإنسانية ، فما زال أبناء حوّاء يخضعون لفطرتهم القديمة يوم كانوا من جيوش الغريزة قبل أن يصيروا من رجال الوجدان

ألم أشهد العجائب فى الأعوام التى قضيتها فى السوربون ؟

كان شبان فرنسا فى ذلك العهد يرون الحرب من بقايا الوحشية ، ويَتواسَوْن بأن يكونوا أنصاراً للسلام مهما تقلبت الظروف ، ثم سمعتُ بعد أن فارقت باريس أن أقطاب فرنسا يختلفون حول فكرة التسلح وأن فيهم من يرى أن ترصد جميع أموال الدولة المنشآت العمرانية والمدنية

وذلك ذنبك يا باريس ، فأنت وثقت باعتدال الموازين قبل أن تستعد فطرة الإنسان الحيوانية للترحيب باعتدال الموازين

ولو كانت باريس غير باريس لعرف أهلها أن فى الدنيا خلائق تعيش بغرائز موروثة من العهود التى سبقت التاريخ

إن الورد يعتصم بالشوك ، فكيف فات باريس أن تعتصم بالسلاح ؟

تلك هفوة سيكفّر عنها أبناء الجيل الجديد فى باريس يوم تنجلى الغُمّة بعد أن تضع الحرب أوزارها الثقال

ولكن متى ؟

إن انتظار السلام قد يطول !

* * *

فى أى المحامد والمحاسن والمناقب يفكر الرجل حين يجزع لبلواك يا باريس ؟

أيذكر أن مطابعك كانت تخرج نحو سبعين كتاباً فى اليوم الواحد ؟

أيذكر أن مكاتبك مرجع لجميع ما أبدعت العقول الإنسانية فى القديم والحديث ؟

أيذكر أنك صورة الإنسانية ، الصورة المجسّمة التى تمثّل ما تملك الإنسانية من آراء وأهواء ، وحقائق وأباطيل ؟

أيذكر أنك أرحب ميدان للصراع بين الحلم والجهل ، والشك واليقين ؟

أيذكر أن معاهدك العلمية والأدبية والفنية كانت النِّبراس لأهل العقول والأفكار والأذواق فى أكثر بقاع الأرض ، وأن برلين نفسها لم تنجُ من الافتتان بسحرك القهار ؟

أيذكر أن النشوة الروحية لا تقع إلا لمن يفتح عينيه على نورك الوهّاج أول مرة ؟

وما أسعد من يراك يا باريس أول مرة قبل أن يألف مناظر الفردوس ! وهل تحقّ السلوة لمن يطول عهده بجمالك الفتّان ؟

قد ينسى الناس محامدك يا باريس ، إلا محمدةً واحدة ستبقى فى ذاكرة الخلود

فأعداؤك يا باريس لم يكونوا يجدون الأمن والعافية إلا فى ربوعك الضواحك ، وما استطاعت المطابع فى أى أرض أن تذيع الطمن فى فرنسا كما استطاعت مطابع باريس ؟ وما شُتِمتْ فرنسا فى أى بلد كما شُتِمتْ فى باريس !

لم تكن باريس وطناً خالصاً للفرنسيين ، وإنما كانت أوطاناً لطوائف من المفكرين والثائرين يفدون إليها من كل فج ويطمئنون أهلها إن أرادوا بلا رقيب ولا حسيب

كانت باريس هى المنفَى الأمين لمن تلفظهم حكوماتهم من أصحاب المبادئ والمذاهب ، وكانت منتدياتها مجالاً للثائرين على موروث الأفكار والتقاليد من سائر أبناء الشعوب

كانت باريس هى الملعب الذى تراض فيه عضلات الأفكار على المَرونة والعُنف

كانت باريس حرباً على أهلها بفضل تلك الحرية ، ولكنها كانت تشعر بالأبوّة الرحيمة لكل من يلجأ إليها ، ولو كان من دعاة الهدم والتخريب

كانت باريس تعرف أن نشر المُعاد من الأفكار الموروثة لا يحتاج إلى حماية ، ففي مقدور كل مخلوق أن يذيع الآراء التقليدية حيث شاء ، وكذلك رأت باريس أن تكون حامية الفكر الحرّ من جميع القيود ، وفي رحابها ترعرعت المبادئ الجوامح التي صارت عدة أعدائها من الروس والألمان والطليان

فكيف صِرتِ اليوم يا باريس ؟ وكيف تصيرين بعد اليوم ؟

أنا أعرف أن جراحك لن تندمل في يوم أو يومين ، واللحظة الواحدة من آلام الأحرار تُقدَّر بأعوام طوال ، فماذا تنوين وقد قهرك بَغيُ الأعداء على اعتناق مبدأ الحقد الأسود ؟

في رحابك اليوم شيوخ وأطفال لا يفتحون عيونهم إلا على ظُلُمات من فوقها ظُلُمات ، فهل تختفي البشاشة الروحية والوجدانية من أدبك الرفيع ؟ وهل يَحُلّ النفاق محل الصراحة بعد أن دفعت الأثمان الغالية في عقوبة الترحيب بالرأي الصريح ؟

وهل تصيرين مثل موسكو وروما وبرلين في خضوع الأفكار والمذاهب للسلطة العسكرية ؟

أنا لا أخاف أن تموت باريس ، وإنما أخاف على باريس عادية الجمود

إن أبناء باريس حاولوا تخريبها مرات كثيرة بسبب العداوات الحزبية ، ولم يُفلحوا ، فكيف يُفلح في تخريبها الأعداء ؟ وهل خُلِقت باريس للموت ، وهي أسطعُ جذوات الخلود ؟

أحب أن أعرف ما الذي ستصير إليه باريس بعد اليوم ؟

أحب أن أعرف مصير الحرية الفكرية في هذا الوجود الموبوء بأنفاس المُرائين والمخادعين ؟

لم أتفجّع على باريس لقرابة أو جوار ، وإنما أتفجع على باريس لما بيننا وبينها من أنساب علمية وروحية ، فإليها يرجع الفضل في تخريج من عرفنا من كبار الأدباء والزعماء ، وتلك وشائج لا ينساها إلا من ابتلاه الله برذيلة الجحود

سيعضُّ قومٌ بنان الندم على الشماتة بمدينة النور ، يوم يعرفون أنْ لم يبق في الدنيا مكان تذاع فيه آراء الأحرار بلا تهيب ولا إشفاق بعد خمود باريس

لا بُدّ للفكر من مدينة في مثل صراحة باريس وسماحة باريس ، فإلى أين يذهب الفكر وقد ضُرب الحرَج على باريس ؟

إن الفكر هو أغنى ما غنِمت الإنسانية ، وبفضل الفكر الحرّ عرف الإنسان قيمة الوجود

لا بدّ للعالم المفكّر من باريس ولو رُفعت فوق ذراها راية الصليب المعقوف !

وهل أُطفِئت أنوار أثينا الفكرية بعد أن دحرها الرومان ؟

وهل أُطفِئت أنوار بغداد الفكرية بعد أن غلبها التتار الجرمون ؟

وهل استطاع الذين حاربوا القاهرة مئات السنين أن يحجبوا أنوارها عن الشرق ؟

المدُن الفكرية لا تموت ، وكيف يموت الفكر وهو أطول عمراً من الزمان ؟

* * *

أما بعد ، فهذه كلمة فاض بها قلبٌ يتوجع لأحزان باريس ، وطن أساتذتي الأماجد من أمثال مورنيه وتونلا وشامار وميشو وديبويه وسَرسيه وديموميين ولالاند وماسينيون ، وطن المكاتب التي كنت أقضي فيها سهراتي بالمجان حين كان يُعوزني المال لقضاء السهرات في مراتع اللهو والفُتون

هذه كلمة في التفجع لمصير المدينة التي قضيت فيها أطيب الأعوام من شبابي ، المدينة التي أوحت إلى قلمي كتاب « ذكريات باريس »

فإن ترجع الأيام بعد الذي مضى
بذي الأثل صيفاً مثل صيفي ومَربَعي
شددتُ بأعناق النوى بعد هذه
مرائرَ إن جاذبتها لم تقطّع

وسنلتقي يا باريس ولو بعد حين وقد طبّ الزمان لجراحك الداميات !

كيف الحال في بُولْميش يا باريس ؟

وكيف الحال في الشانزليزيه ؟

وكيف الحال في ڤرساي وقد قيل فيه ما قيل ؟

وكيف الحال في دار المكتبة الأهلية ؟

وكيف حال الساهرين على شواطئ السين ، إن بقيَ للسمر مجالٌ على شواطئ السين ؟

وكيف حال اللاهين واللاعبين بين القصر الكبير والقصر الصغير في الطريق إلى ميدان الأنفليد ؟